بسم الله الرحمن الرحيم

صِنَاعَةُ الْعُقُولِ وَأَثَرُهَا فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ 12 جُمَادَ الثَّانِي 1446هـ

أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ الْعَقْلَ أَصْلُ الْمَعْرِفَةِ، وَمَادَّةُ الْفَهْمِ، وَيَنْبُوعُ الْعِلْمِ، وَمَرْقَاةُ الْأَدَبِ، بِهِ تَظْهَرُ الْحَقَائِقُ، وَتَلُوحُ الْخَفِيَّاتُ، وَتُوزَنُ الْأُمُورُ، وَتُكْتَسَبُ الْفَضَائِلُ، وَهُوَ نِعْمَةٌ يُنْعِمُ اللهُ بِهَا عَلَىٰ مَنْ أَرَادَ كَرَامَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَقَضَىٰ لَهُ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ فِي مَعَادِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ أَيْ: لِذِي عَقْلٍ.

عِبَادَ اللهِ: لِلْعَقْلِ أَمَارَاتٌ عَلَىٰ صَاحِبِهِ، وَصِفَاتٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ، فَأَوَّلُ صِفَاتِ الْعَاقِلِ الْعَقْلُ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالْإِيمَانُ بِهِ، وَالِاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ عليهم السلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ أَصْحَابِ النَّارِ عِيَاذًا بِهِ مِنْهَا: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْعَاقِلُ لَا يُقَدِّمُ عَقْلَهُ عَلَىٰ النَّقْلِ، وَلَا يُخْضِعُ الشَّرْعَ تَبَعًا لِرَأْيِهِ، فَلَا يَسْلَمُ إِسْلَامُ الْعَبْدِ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ التَّامِّ لِنُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وَالْإِذْعَانِ لَهُمَا، وَالْعَمَلِ بِهِمَا، قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله: فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»: وَكُلُّ مَنْ لَهُ مَسْكَةٌ مِنْ عَقْلٍ يَعْلَمُ أَنَّ فَسَادَ الْعَالَمِ وَخَرَابَهُ إِنَّمَا نَشَأَ مِنْ تَقْدِيمِ الرَّأْيِ عَلَىٰ الْوَحْيِ، وَالْهَوَىٰ عَلَىٰ الْعَقْلِ، وَمَا اسْتَحْكَمَ هَذَانِ الْأَصْلَانِ الْفَاسِدَانِ فِي قَلْبٍ إِلَّا اسْتَحْكَمَ هَلَاكُهُ، وَفِي أُمَّةٍ إِلَّا فَسَدَ أَمْرُهَا أَتَمَّ فَسَادٍ.

عِبَادَ اللهِ: الْعَاقِلُ يَتَأَمَّلُ فِي مُلْكِ اللهِ وَمَلَكُوتِهِ، وَيَتَدَبَّرُ آيَاتِهِ وَدَلَائِلَ قُدْرَتِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْعَاقِلُ لَا يُؤْثِرُ اللَّذَّةَ الْعَاجِلَةَ، وَلَا يُقَدِّمُ الْمُتْعَةَ الزَّائِلَةَ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا ظِلُّ غَمَامٍ، وَحُلُمُ مَنَامٍ، لَا تُبْقِي عَلَىٰ حَالَةٍ، وَلَا تَخْلُو مِنِ اسْتِحَالَةٍ، السُّكُونُ فِيهَا خَطَرٌ، وَالثِّقَةُ بِهَا غَرَرٌ، وَالْإِخْلَادُ إِلَيْهَا مُحَالٌ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهَا ضَلَالٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: مِنْ صِفَاتِ الْعَاقِلِ حُسْنُ السَّمْتِ، وَطُولُ الصَّمْتِ، وَعَدَمُ الِابْتِدَاءِ بِالْكَلَامِ إِلَّا حِينَ السُّؤَالِ، وَعَدَمُ الْجَوَابِ إِلَّا عِنْدَ التَّثَبُّتِ. وَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَحْقِرُ أَحَدًا، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ عَيْبُ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ عَيْبُهُ خَفِيَتْ عَلَيْهِ مَحَاسِنُ غَيْرِهِ. وَالْعَاقِلُ إِذَا عَلِمَ عَمِلَ، وَإِذَا عَمِلَ تَوَاضَعَ، وَإِذَا نَظَرَ اعْتَبَرَ، وَإِذَا صَمَتَ تَفَكَّرَ، وَإِذَا تَكَلَّمَ ذَكَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا جُهِلَ عَلَيْهِ حَلُمَ، وَإِذَا سُئِلَ بَذَلَ، وَإِذَا نَطَقَ صَدَقَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ حَافَظَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ الْعَقْلِ مُحَافَظَةً شَدِيدَةً، وَاعْتَنَىٰ بِهِ اعْتِنَاءً عَظِيمًا؛ فَكَانَ الْعَقْلُ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ الْخَمْسِ الَّتِي اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ السَّمَاوِيَّةُ عَلَىٰ حِفْظِهَا، وَهِيَ الدِّينُ وَالنَّفْسُ وَالْمَالُ وَالْعِرْضُ وَالْعَقْلُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَقْلَ مَوْضِعُ اسْتِقَامَةِ دُنْيَا الْإِنْسَانِ وَدِينِهِ، وَسَبَبٌ لِسَلَامَةِ مَا حَوْلَهُ مِنْ ضَرَرِهِ. فَقَدْ حَرَّمَتِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ الْمُفْسِدَاتِ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَىٰ الْإِخْلَالِ بِالْعَقْلِ، فَيُصْبِحُ صَاحِبُهُ كَالْمَجْنُونِ، لَا يَعْرِفُ الضَّارَّ مِنَ النَّافِعِ. وَهَذِهِ الْمُفْسِدَاتُ الْعَقْلِيَّةُ الْحِسِّيَّةُ هِيَ الْخُمُورُ وَالْمُخَدِّرَاتُ، وَمَا قَامَ مَقَامَهَا مِنَ الْمُسْكِرَاتِ. فَقَدْ جَاءَتِ النُّصُوصُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَىٰ عَشْرَةِ وُجُوهٍ:

لُعِنَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا، وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَآكِلُ ثَمَنِهَا».

عِبَادَ اللهِ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الْإِرْجَافِ فِي الْأَوْطَانِ، وَنَشْرِ الشَّائِعَاتِ، وَبَثِّ الْفِتْنَةِ وَالْوَهَنِ بَيْنَ النَّاسِ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمُوَجَّهَةِ الْعَمِيلَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالًا﴾ أَيْ: لِأَنَّهُمْ جُبَنَاءُ مَخْذُولُونَ، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أَيْ: وَلَأَسْرَعُوا السَّيْرَ وَالْمَشْيَ بَيْنَكُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْفِتْنَةِ، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أَيْ: مُطِيعُونَ لَهُمْ، وَمُسْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ، فَيُؤَدِّي هَذَا إِلَىٰ وُقُوعِ شَرٍّ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَفَسَادٍ كَبِيرٍ. اهـ. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَا تَكُونُوا عُجُلًا مَذَايِيعَ بُذُرًا، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ بَلَاءً مُبَرِّحًا مُمْلِحًا مُكْلِحًا، وَأُمُورًا مُتَمَاحِلَةً رُدُحًا». وَمَعْنَىٰ «الْعُجُلِ»: أَيِ الَّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَ فِي الْأُمُورِ، وَلَا يَتَأَنَّوْنَ، وَمَعْنَىٰ «مَذَايِيعَ»: أَيْ يُذِيعُونَ الْأَخْبَارَ، وَيَحْرِصُونَ عَلَىٰ إِشَاعَتِهَا كَيْفَ كَانَتْ، وَ «الْبُذُرُ»: أَيِ الَّذِينَ يَبْذُرُونَ الْفِتَنَ وَأَسْبَابَ الْفُرْقَةِ وَالشِّقَاقِ بَيْنَ النَّاسِ. وَقَوْلُهُ: «فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ بَلَاءً مُبَرِّحًا مُمْلِحًا مُكْلِحًا» أَيْ: شِدَّةٌ وَشَرٌّ وَعَذَابٌ

شَدِيدٌ وَمَشَقَّةٌ، تُكْلِحُ النَّاسَ لِشِدَّتِهَا. وَقَوْلُهُ: «وَأُمُورًا مُتَمَاحِلَةً رُدُحًا» أَيْ: فِتَنًا طَوِيلَةً ثَقِيلَةً.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَا بُدَّ فِي الْفِتَنِ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَالْإِفَادَةِ مِنْ عُلُومِهِمْ، وَالصُّدُورِ عَنْ كَلِمَتِهِمْ، وَعَدَمِ خَوْضِ الْإِنْسَانِ فِيمَا لَا يُحْسِنُ، وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ، وَعَدَمُ خَوْضِهِ فِيمَا لَا يُحْسِنُ لِئَلَّا يَضُرَّ نَفْسَهُ وَيَضُرَّ غَيْرَهُ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ الصَّادِقَ لَا يَرْضَىٰ بِأَنْ تُمَسَّ بَلَدُ الْإِسْلَامِ بِسُوءٍ، بَلْ يَقِفُ مُعَادِيًا مُتَصَدِّيًا لِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ التَّطَاوُلَ عَلَىٰ قِيَمِهَا وَثَوَابِتِهَا، أَوْ يَسْعَىٰ فِي إِشَاعَةِ الْفَوْضَىٰ فِيهَا، أَوْ الِاسْتِجَابَةِ لِمَنْ يُرِيدُ زَعْزَعَةَ الِاسْتِقْرَارِ، وَالْإِخْلَالِ بِأَمْنِهَا، وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ؛ فَالْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ فِي الْمُجْتَمَعِ عِبَادَةٌ نَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ ﷻ، وَهِيَ مَسْئُولِيَّةُ الْجَمِيعِ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَكَاتُفِ الْجُهُودِ فِي هَذَا الْمَجَالِ؛ لِلتَّصَدِّي لِمَنْ يُحَاوِلُ الْإِخْلَالَ بِأَمْنِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَالْوُقُوفِ أَمَامَ كُلِّ دَعْوَةٍ تُهَدِّدُ الْأَمْنَ، وَتُزَعْزِعُ الِاسْتِقْرَارَ، فَلَا هَنَاءَ فِي عَيْشٍ بِلَا أَمْنٍ، وَلَا سَعَادَةَ فِي مَالٍ بِلَا اسْتِقْرَارٍ، وَإِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَنْعَمَ عَلَىٰ الْعِبَادِ بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ وَافِرَةٍ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وَاجِبَاتٍ مُتَعَدِّدَةً، فَمِنْ ذَلِكَ أَمْنُهُمُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَحْفَظُوهُ، وَيَعْمَلُوا عَلَىٰ اسْتِدَامَتِهِ وَبَقَائِهِ، وَعَدَمِ انْتِهَاكِ مَا يُخِلُّ بِهِ، وَيُذْهِبُ آثَارَهُ الْمَحْمُودَةَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ التَّحَالُفِ مَعَ أَعْدَاءِ الْوَطَنِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَتَرَىٰ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.